مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 05 العدد:02- جوان 2021 ص36/49

التأليف البلاغي و منهجه عند ابن رشيق المسيلي القيرواني

Approach of rhetorical authorship according to Ibn Rashiq al-Masili of Cyrene

د. أحمد لعويجي*
جامعة المسيلة (الجزائر)
ahmed.laouidji@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/05/04
تاريخ القبول:
2021/05/21

الكلمات المفتاحية:
- العمدة
- موسوعة
- البلاغة-
- النقد الأدبي

الملخص:

يعتبر كتاب(العمدة) موسوعة في الشعر ونقده، وفي البلاغة وفنونها؛ وهو من أهم المصادر الأدبية والنقدية والبلاغية، فبحره مليء بالدّرر، معينه لا ينضب. ينهل منه الباحثون والدّارسون على مختلف مشاربهم ومن محتوياته الأدبية نثرية أو شعرية أو النقدية أو البلاغة، واختزن من آراء السابقين. وفيه امتزج الدرس البلاغي بالنقد الأدبي وارتبطا ارتباطا وثيقا؛ وذلك لأهمية البلاغة بالنسبة للنقد الأدبي خصوصا في طور النشأة والتكوين؛ إذْ تعدّ من أهم أركانه التي قام عليها. ومن باب إماطة اللثام عن تراثنا الأدبي والنقدي والبلاغي سنحاول استقراء ما جاء

* - المؤلف المرسل.

في الكتاب من خلال تتبع الآليات التي اعتمدها ابن رشيق ومنهجه في التأليف علّنا ندفع عنه تهمة الجمع التي ألصقت بصاحب الكتاب، ونحاول قدر المستطاع التوفيق بين الآراء المختلفة.

✓ آليات البحث
✓ المنهج .

Abstract :

The book of "Al-omda" is considered as an encyclopaedia in poetry and its criticism and in rhetoric and its arts. It's one of the most important literary,rhetorical, and critical sources.For the researchers and scholars, from various sectaries,it has an endless meaning, and they obtain from its literary prose, poetic, critical, or rhetorical contents. We've chosen from the predecessors' opinions. In this book, the rhetorical lesson is mixed with the literary criticism so that they make a firmed relation,since rhetoric is important for the literary criticism, especially in the stage of emergence and development,and it's one of its main basics. For the sake of revealing our literary, critical, and rhetorical heritage, we shall attempt inducing the book content through following the mechanisms used by Ibn Rashiq and his method in writing for refuting the accusation of collecting, and we shall effortfully bring together the different perspectives.

Article info

Received *04/05/2021*
Accepted *21/05/2021*

Keywords:
- ✓ *Automated*
- ✓ *Al-omda,*
- ✓ *encyclopaedia,*
- ✓ *the rhetoric,*
- ✓ *the literary criticism,*
- ✓ *the research mechanisms,*
- ✓ *the method*

مقدمة:

لقد درج الدارسون والباحثون في مجال الدرس البلاغي على تقسيم المدارس التي تولّت البحث في البلاغة العربية إلى مدرستين: أدبية وكلامية؛ فالمدرسة الأدبية تتميّز بالطابع الأدبي الذي يعتمد على الذوق السليم، كما أنّها لم تعطِ أهمية للتحديد والتقسيم، أي: إنْ وُجِد فهو غير مقصود لذاته وإنما دعت الحاجة إليه، وابتعدت عن المنطق ومسائل الفلسفة، وحكّمت المقاييس الفنية في النصوص الأدبية؛ إلى غير ذلك من الخصائص المميزة لها عن المدرسة الكلامية. وكان من أبرز أعلام المدرسة الأدبية عبد القاهر الجرجاني؛ فكتابيْه(أسرار البلاغة)و(دلائل الإعجاز) كانا من أهم المصادر في هذا المجال. إلى جانب أعمال كل من: ابن سنان الخفاجي، وأبو هلال العسكري، وابن الأثير وغيرهم من أعلام هذه المدرسة.

وفي المغرب العربي سار ابن رشيق(**463هـ**) على نهجهم واقتفى أثرهم؛ فألَّفَ كتابا سمّاه:(العمدة في صناعة الشعر ونقده وتبيان عيوبه وفنونه)؛ هذا الكتاب يعدّ من بين الكتب التي جاوزت بمؤلّفيها الحيز المكاني الذي تربوا وترعرعوا فيه، وصُقلت فيه مهاراتهم العلمية والأدبية إلى الآفاق الرحبة؛ إذ تجاوز تأثير هذا الكتاب حدود المغرب إلى كافة بلدان المشرق والأندلس، فهو بحقٍّ مثل ما قال عنه ابن خلدون:« إنه أول من اهتم بمثل هذه الصناعة الأدبية».[1] إذْ تخطّى صيْته الحدود؛ وشاع في البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا؛ فالعمدة يعتبر من أهم المصادر الأدبية والنقدية والبلاغية؛ فهو بحق موسوعة لكل هذه العلوم، ومرجع لا غنى عنه للباحثين والدارسين في هذه الحقول المعرفية.

التعريف بصاحب (العمدة) ابن رشيق المسيلي القيرواني(463هـ):

- **نسبه:** أبـو علي الحسن بن رشيق المسيلي مولدًا، القيرواني دارًا لقّب بهـذا الاســـــم (القيرواني) « لطول مدّة مكوثه بالقيروان ».[2]

- **مولده ونشأته:** ولد ابن رشيق في مدينة المسيلة التي كانت تدعى (المحمدية) بمنطقة الحضنة عام (385هـ /995م).[3] وقيل: سنة (390هـ/1000م).[4] من والد « كان مملوكا لرجـل من الأزدْ ».[5] ونشـأ بها، وتعلّم صناعة الصياغة على والده، ثمّ مَالَ إلى علوم اللغة والآداب والتاريخ التي أخذها عن علماء بلده؛ « فبرز في فنون الأدب والفقه والحديث والتاريخ، ولمّا بلغ إحدى وعشرين سنة من عمره ارتحل من بلده للقاء الشيوخ بالقيروان ».[6] فاختاره المعز لبلاطه فقرّبه إليه، وبعد وفاته التحق بابنه تميم ولم يزل مقرّبا لديه إلى أن جاءت الحملة الهلالية فانتقل ابن رشيق إلى جنوب إيطاليا وبالضبط إلى جزيرة صقلّية، وبقي هناك إلى أن وافاه أجله.

قال عنه ابن خالكان:« قرأ الأدب بالمحمدية وقال الشعر وتاقت نفسه إلى التزيّد منه وملاقات أهل الأدب فرحل إلى القيروان، فنزل بعاصمة الشمال الإفريقي سنة (406هـ/1015م) ولقي بها عميد اللغة والأدب الشيخ أبا عبد الله محمد القزاز، وعبد الكريم النهشلي وغيرهما من العلماء وشيخة القيروان فلازم مجالسهم حتى اشتهر فضله وذاع صيته في الأوساط العلمية والأدبية ».[7]

درَس ابن رشيق في موطن مولده (مدينة المحمدية) فحفظ بها القرآن الكريم، ونال حظّا وفيرا من علوم العربية والفقه واللغة والأدب، وصاغ أشعاره الأولى فيها، ثمّ انتقل إلى مدينة القيروان بتونس للتزيّد وملاقاته مشايخها وعلمائها حيث توطّدت علاقاته العلمية بهم ونمت فالتقى عبد الكريم النهشيلي؛ وهو من أهل المسيلة انتقل إلى القيروان وأقام فيها، وكان النهشلي من أبرز أعلامها الذين تحدث عنهم التاريخ، وذكرتهم كتب التاريخ والعلم والأدب، كما التقى الشيخ محمد بن جعفر القزاز في القيروان وأخذ عنه أيضا.[8]

- **شيوخه:** نقل عبد الرحمان الجيلالي عن ابن كالخان في كتابه (وفيات الأعيان) قوله: « قرأ الأدب بالمحمدية وقال الشعر وتاقت نفسه إلى التزيد منه وملاقاة أهل الأدب فرحل إلى القيروان فنزل بعاصمة الشمال الإفريقي سنة (406هـ/1015م) ولقي بها عميد اللغة والأدب الشيخ أبا عبد الله محمـد القزاز وعبد الكريم النهشلي وغيرهما من العلماء وشيخة القيروان فلازم مجالسهم حتى اشتهر فضله وذاع صيته في الأوساط العلمية والأدبية...».[9] ومن شيوخه أيضا: أبو إسحاق إبراهيم الحصري المتوفى سنة (412هـ/1421م) ونسبه يعود إلى قرية (الحصْر) بجوار القيروان[10]؛« وهو أستاذ علمين من أعلام الأدب في القيروان: ابن رشيق وابن شرف ».[11] ومن شيوخه أيضا: أبو محمد عبد العزيز أبي سهـل الخشني الضرير، وأبو الحسن علي بن أبي الرجال.

- **تلاميذه:** انتقل ابن رشيق المسيلي القيرواني إلى مدينة القيروان وهو شابا وهذا بعد أن تاقت نفسه إلى المزيد من العلم والأدب؛ خصوصا وأن مدينة القيروان في تلك الفترة كانت مركز إشعاع فكري قلّ نظيره في شمال إفريقيا، وبعد أن التقى بعض من كان فيها من الشيوخ والاستزادة منهم، وبعد أن صُقلت موهبته تصدّر للتّدريس والتّأليف، فاستفاد منه خلق كثير نذكر منهم: خلف بن أحمـد القيـرواني الشاعر، وأبو عبد الله بن أبي سعيد محمد المشهور بابن شرف القيرواني، وقد كان منافسا له في قصر المعز بن باديس وكانت بينهما مناقضات ومُهَاجات.

- **بيئته وعصره:** عاش ابن رشيق أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، إذ امتدّ به العمر حتى خمسينيات هذا القرن على بعض أقوال أصحاب السيّر والتراجم، وفي أقوال أخرى حتّى ستّينيات القرن الخامس الهجري، وكانت العلوم والفنون قد تطورت في المغرب تطورًا كبيرا وتركزت معظم الأنشطة الاجتماعية والعلمية والأدبية في مدينة القيروان؛ باعتبار أنها أو حاضرة علمية في بلاد المغرب بعد فتحها، وانتقال العلماء من المشرق إليها وعنها نقل كامل محمد محمد عويصة عن المـراكشي قوله: « وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ».[12] إذ كثرت بها الدواوين وحلقات العلم والأدب؛ مما أضفى ناقشا بين الأدباء والشعراء، أدى بدوره إلى نشوء حركة فكرية رائدة في شمال إفريقيا في هذه الفترة الزمنية.

- **مكانته العلمية:** قال فيه عبد الرحمان الجيلالي في كتابه(تاريخ الجزائر العام): « وإليه رحمه الله يعزى ابتكار سبعة وثلاثين نوعا من أنواع البديع ».[13] وقال فيه يحيى بوعزيز في كتابه (أعلام الفكر والثقافة): « وهو أشهر من أن يعرف لأنه كان أحد أعلام اللغة والأدب - على مستوى كل البلدان الإسلامية التي كانت

اللغة العربية لغتها – ... وخلف لنا من ورائه تراثا أدبيا رفيع المستوى وغـزيرًا ».[14] وأضاف:«وقيل أنه ابتكر 37 نوعا من أنواع فن البديع ».[15]

وقال شوقي ضيف:« قيمة العمدة في تاريخ البلاغة ترجع إلى دقّة جمعه للآراء المتقابلة في متونها المختلفة ».[16]

- **آثـاره:** من أشهر مؤلفات الحسن بن رشيق المسيلي القيرواني:

العمدة في صناعة الشعر ونقده (في مجلدين)، شذرات الذهب، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، طراز الأدب، كتاب الممادح والمذامم، كتاب التصحيح، كتاب تحرير الموازنة، كتاب الاتصال، كتاب المن والغذاء، كتاب غريب الأوصاف ولطائف التشبيهات، أرواح الكتب، الشعراء الكتاب، كتاب المدائح، كتاب الأسماء المعربة، كتاب المنازعة، كتاب معالم التاريخ، كتاب فضائل التوسع في فضائل العقول، كتاب الحيل، كتاب ميزان العمل في تاريخ الدلو، كتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان، فسخ الملح ونسخ اللمح، كتاب تاريخ القيروان، كتاب الشذوذ في اللغة، كتاب الروضة الموشية في شعراء المهدية، كتاب ديوان ابن رشيق(وهو معظم ما تركه ابن رشيق من قصائد ومقطوعات).

- الرّسائل: نفح الطيب، قطع الأنفاس؛المساوئ (مخصص في الرقات الشعرية)، رسالة نقض الرسالة الشعوذية، رسالة رفع الإشكال، القصيدة الدعية، الرسالة المنقوضة.

- الشروح: شرح الموطأ للإمام مالك.[17]

- **وفاته:** توفي ابن رشيق بمدينة (مازرة) في جزيرة صقلية سنة 463هـ[18] الموافق لسنة 1071م.

وقيل: سنة (462هـ الموافق لـ: 1070) أو (455هـ الموافق لـ: 1063م)[19]؛ وقيل سنة (456هـ الموافق لـ: 1064م)[20]؛ وقيل سنة (450هـ الموافق لـ: 1058م)[21].

منهجه في التأليف:

* عالج ابن رشيق الدّرس البلاغي في كتاب (العمدة) دون ترتيب معين؛ وإنّما خص كل مسألة من مسائل البلاغة بيان خاص بها. ولم يرد في كتابه ما يشير إلى تقسيم علوم البلاغة إلى: علم البيان، علم المعاني، علم البديع. وفق ما استُحدث بعد ذلك وورد في كتب البلاغة مثل ما جاء (في مفتاح العلوم) للسكاكي وغيره من أعلام البلاغة.

* جعل ابن رشيق كتابه(العمدة) ثلاثة أقسام:

1- قسم أفاد فيه من كلام المتقدمين جمعا ونقلا دون أن يغيّر شيئا من لفظه ولا معناه، فقال:«... فجمعت أحسن ما قال كلّ واحد منهم في كتابه ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه إن شاء الله...»[22]

ففي باب (البلاغة) على سبيل المثال أحصى ما يقترب من عشرين تعريفا وقولا مأثورا نقلها من كتب الأولين حيث، قال:

« ...وسئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يُفهم، وكثير لا يُسأم.

وقال آخر: البلاغة إجاعة اللفظ، وإشباع المعنى.

وسُئل آخر فقال: معان كثيرة، في ألفاظ قليلة.

وقيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز...» إلى غير ذلك مما أحصاه من حدود البلاغة، حيث اكتفى فيها بالجمع دون التمحيص.

2- وقسم عوّل فيه على قريحته«... وعوّلت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، خوف التكرار ورجاء الاختصار ...»[23] فقد استطاع أن يستخرج ويستنبط سبعة وثلاثين (37) لونا بديعيا لم يسبقه إليها أحد، نحو: التفريع، ونفي الشيء بإيجابه، والاطــراد، والتمليط والاتساع وغيرها من ألوان البديع، كما أنه أورد حدودا لبعض المسائل البلاغية التي لم يتكلّم عنها أحد قبله؛ نحو ما جاء في مبحث التشبيه؛ «صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم "خد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه، فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر، لأن الجواهر في الأصل كلها واحد، اختلفت أنواعها أو اتفقت؛ فقد يشبهون الشيء بسميه ونظيره من غير جنسه، كقولهم:" عين كعين المَهَاة"...فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الإنسان والمَهَاة»[24].

3- وقسم ثالث تعلق بالأخبار وضبط الرواية؛ اعتمد فيه النّقل الحرفي دون زيادة ولا نقصان، حيث قال:«**...إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه...** ».[25] نحو ما جاء في باب(البيان)؛ إذْ أورد حدّه كما هو عند أبي الحسن الرماني، فقال: « قال أبو الحسن الرماني في البيان: هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة؛ لأنها إحضار المعنى للنفس وإن كان بإبطاء. وقال: البيان الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل، ولا يستحق اسم البيان ».[26] و نقل باب(التكرار) كاملا عن ابن المعتز، فقال:« وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله بن المعتز، إلا ما لا إخفاء به عن أحد من أهل التمييز».[27] ويسرد بعد ذلك سبب النقل المباشر لهذا الباب والمتمثل في قلة الشواهد فيه.

وفي هذا التزام بالأمانة العلمية، ولا شك أنّ هذا أقصى ما يبتغيه العلماء حينما يطالبون الباحث بذكر المصدر والمرجع ونسبة الرأي إلى قائله ما لم يكن هو قائله.[28]

* وأشار إلى اختلاف أهل الاختصاص في تحديد بعض المفاهيم، وكان موضوعيا في مناقشاته ولم يكن يخطئ شخصا دون مناقشة رأيه، وتبيين أوجه الخطأ فيه بأسلوب مهذب. ويُبيّن الغثّ من السمين منه، ويشرح حينا، ويضيف حينا آخر، ويبدع في أحايين أخرى؛ ويظهر ذلك جليا في مقولته:«... بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددت كل فرع إلى أصله، وبينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشفت عن وجه الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه وأميّز كذبه من صدقه ».[29] ففي باب (المجاز) أورد: « ومعنى المجاز طريق القول ومأخذه وهو مصدر " جُزْتُ مجازًا " كما تقول " قمت مقاما، وقلت مقالا " حكى ذلك الحاتمي، ومنه كلام عبد الله بن مسلم بن قتيبة في المجاز قال: لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا باطلا؛ لأننا نقول: نبت البقل وطالت الشجرة .... ونقول: كان هذا العقل منك في وقت كذا، والعقل لم يكن وإنما يكـون ونقول: كان الله، وكان بمعنى حدث، والله قبل كل شيء، وقال في قوله عز وجل: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾[الكهف :77] لو قلنا لمُنكر هذا كيف تقول في جدار رأيته على شفا انهيار؟ لم يجد بدًا من أن يقول: يَهُمُّ أن ينقض، أو يكاد أو يقارب، فإن فعل فقد جعله فاعلا ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من ألسنة العجم إلا بمثل هذه الألفاظ ».[30] ثم أضاف :« والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضًا فهو مجاز؛ لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز إلا أنهم خصوا به – اعني اسم المجاز- بابا بعينه؛ وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، كما قال جرير بن عطية:

إِذَا سَقَطَ السَّمَاء بأَرْضٍ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَـــــابَا

أراد المطر. لقربه من السماء، ويجوز أن يريد بالسماء السحاب، لأن كل ما أضلك فهـو سمـاء، وقال: " سقط " يريد سقوط المطر الذي هو فيه، وقال " رعينا " والمطر لا يرعى، ولكن أراد النبت الذي يكون عنه فهذا كله مجاز...».[31] فهو لم يكتفِ بعرض قولي: الحاتمي وعبد الله بن مسلم بن قتيبة في المجاز وفقط ، بل حدّد معناه، وضرب الأمثلة على ذلك لتقريب المعنى، وأبدى وجهة نظره حول هذه المسألة؛ فعرّفها ثمّ أدرج التشبيه والاستعارة ضمن هذا الباب أو منضوية تحت ألوانه، ثمّ مثّل لذلك ببيت شعر لجرير بن عطية، وكيف أن الشاعر استغل الألفاظ للتّعبير عمّا يريد إيصاله للقارئ مستعملا المجاز.

وذكر اختلاف البلاغيين في تسمية التسهيم، فقال: « فقدامة يسميه التوشيح..وقيل: إن الذي سماه تسهيمًا علي بن هارون المنجم، وأما ابن وكيع فسماه المطمع، وهو أنواع: منه ما يشبه المقابلة، وهو الذي اختاره الحاتمي، نحو ما قالت جَنُوبَ أختِ عَمْرِو ذي الكَلْب:

....

إذَا نَبَّهَــا لَيْــثَ عِــرِّيسَةٍ مُفِيتًــا مُفِيــدًا نُفُوسًـا ومــالا

....

....

أردت قولها"مفيتا نفوسا ومفيدا مالًا" فقابلت بين مفيتًا بالنفوس ومفيدًا بالمال...وسر الصنعة في هذا الباب أن يكون معنى البيت مقتفيا قافيته، وشاهدا بها دالا عليها كالذي اختاره قدامى للراعي، وهو قوله:

وإن وُزِن الْحَصَى فوزنتُ قومي وجدت حَصَى ضَرِيبتهم رَزِينا

فهذا النوع الثاني هو أجود من الأول للطف موقعه.

والنوع الثالث شبيه بالتصدير، وهو دون صاحبيه، إلا أن قدامة لم يجعل بينهما فرقا...»[32]

وفي باب (التسهيم) قال: « وقدامة يسميه (التوشيح) ... وقيل: إن الذي سمّاه تسهيما علي بن هارون المنجم، وأما ابن وكيع فسماه المطمع، وهو أنواع: منه ما يشبه المقابلة وهو الذي اختاره الحاتمي نحو قول: جَنُوْبَ أُخْت عَمرو ذي الكلب:

فأقسمُ يا عمرُو لو نبَّهَاكَ إذاً نبَّهَا منك داءً عُضَـــالا

إذاً نبَّهَـــا لَيْثَ عِرِّيسَـــةٍ مُفيتاً مُفيداً نُفُوسـاً ومالا

أرادت بقولها: " مُفيتاً نُفُوساً ومفيدًا مالا " فقابلت مفيتا بالنفوس ومفيدا بالمال.

وسرّ الصناعة في هذا الباب أن يكون معنى البيت مقتفيا قافية، وشاهدا بها دالّا عليها كالذي اختاره قدامة للراعي، وهو قوله:

وإنْ وُزنَ الحَصَى فَوَزنْتُ قوْمي وجدْتُ حَصَى ضَرِبَتهم رزينا

فهذا النوع الثاني وهو أجود من الأول لِلُطف موقعه.

والنوع الثالث شبيه بالتّصدير، وهو دون قافية، إلا أن قدامة لم يجعل بينهما فرقا.

وأنشد للعباس بن مرداس:

هُمُ سَوَّدُوا هجنًا وكلُّ قَبيلَة يُتَبَيّنُ مِن أحسَابِها من يَسُودُها

... وإنْ تأمّلت قوافي مَا هذه سبيله لم تجد له لطف الموقع ما لِقافية الراعي وإنما اختير هذا النوع على ما ناسب المقابلة والتصدير لأن كل منها مدلول على جهة اللفظ: إما بالترتيب وإما باشتراك المجانسة والقافية في بيت الراعي دالة على نفسها بالمعنى وحده، فصار استخراجها أعجب وأغرب وتمكنـها أشد وأوكد ».[33]

وفي هذا الباب يورد ابن رشيق الأسماء المختلفة للتسهيم، فهو عند قدامة التوشيح، وعند علي بن هارون المنجم: التسهيم، وعند وكيع: المطمع.

* التميز بالأمانة العلمية؛ إذ كان يسند كل رأي لصاحبه، فقال في باب(البيان):« قال أبو الحسن الرماني في البيان: هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك...».[34] وقال في باب (الإيجاز):« الإيجاز عند الرماني على ضربين: مطابق لفظه لمعناه: لا يزيد عليه ولا ينقص عنه كقولك: (سَلْ أَهْلَ الْقَرْيَةَ) ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه في ذلك الموضع كقول الله عز وجل: ﴿ وَسْئَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالعِيرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[يوسف: 82] وعبر عن الإيجاز بأنه قال: هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف ...».[35]

* تحري صدق المعلومة، قال:« ... بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددته كل فرع إلى أصله، وبينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشفت عنه لَبْسَ الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه،...».[36] وما أكثر ذلك في أبيات الشعر التي أوردها للاستشهاد والتمثيل، نحو قوله في باب (المطابقة): وقال زهير، وزعموا أنه لأوس بن حَجَر:

إذا أنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عن الجَهلِ والْخَنَا أَصَبْتَ حَلِيمًا أو أصَابَكَ جَاهِــلُ

وقوله في نفس الباب: وأنشد غير واحد من العلماء لحسين بن مطير:

بِسُودٍ نوَاصِيها وحُمْرٍ أَكُفُّها وصُفرٍ ترَاقِيها وبِيضٍ خُدُودُها[37]

وقوله أيضا: « ومما يغلط فيه الناس كثيرا في هذا الباب الجمال والقبح كقول بعض المحدثين:

وَجْهُهُ غَايَةَ الْجَمَالِ، ولكن فِعْلُهُ غَايَةٌ لِكُلِّ قَبِيـــــحِ

وليس ضده، وإنما ضده الدّمامة ، والقبح ضده الحسن».[38]

استقراء جزئيات المسائل البلاغية قبل أن يتعرّض لها بالبحث والدراسة والتحليل والتفصيل، ففي باب (التخلص) مثلا: تكلم ابتداء في أسماء التّخلص، ومنها: الخروج والتوسل؛ ثم ذكر بعض النماذج الشعرية التي يتمثل فيه التخلص، ثم عرّج على المواضع التي يحسن فيه التخلص وانتهى إلى التعريف بطريقة العرب في الخروج.

* إصدار الأحكام دونما تردد، مما يوحي بتمتعه بالثقة الزائدة في نفسه؛ لذا نجده في كثير من الحالات يستخدم ألفاظا وعبارات دالة على ذلك، نحو: زعم، لا أظن ذلك، أتبين صوابه من خطئه، كشفت عنه لَبْسَ الارتياب، بينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب، أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه، هو عندي بعيد عن أحكام الصنعة، جاء بالغث البارد والبشع المتكلف، وما أظنه سرق هذا المعنى إلا من كذبة كذبها أبو العباس الصَّيْمَرِي[39]...

* اقتصاره في بعض الحالات على تحكيم الانطباع والانفعال الذوقي المعلل؛ فتراه يكثر من العبارات الدّالة على ذلك، نحو:

- « ومن مليح ما رأيته في المطابقة ».[40]

- « ومن الطباق الحسن قول أعرابي...».[41]

- « فما الذي أعجبه من هذه الاستعارة قبحها الله!!؟ ولو قال " الكلل" لتخلص وأبدع...».[42]

- « وجعل الله تعالى اسمه مفتاحًا، وأي طائل في هذه الاستعارة مع ما فيها من البشاعة والشناعة!!؟ وإن كنا نعلم أنما أراد أمر الله وقضاءه ».[43]

* رتب ابن رشيق الشواهد في بعض المسائل البلاغية ترتيبا عقائديا،أي: يأتي بالشاهد القرآني، ثم الشاهد من الحديث النبوي الشريف، وفي مرحلة ثالثة يستخدم الشاهد من كلام العرب كما هو عليه الحال في باب(الاستعارة) وفي جزئية التمثيل لها أورد الأمثلة على النحو التالي؛ إذ بدأ بذكر أمثلة من القرآن الكريم نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لَمَّا طَغَا الْمَاءُ** ﴾[الحاقة:11] وقوله:﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ**﴾[الأعراف:154] وقوله: ﴿ **سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْـــظِ**﴾ [الملك 7-8] فالشهيق والغيظ استعارتان وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ**﴾[هود:44] ثمّ نماذج من الحديث النبوي الشريف في مرحلة ثانية، فذكر قوله ﷺ: « **الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ** ».[44] وقوله: « **تَمَسَّحُوا بِالأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ** ».[45] والمقصود أنّها منها خلْقهم، وفيها معادهم، وهي بعد الموت: "كِفَاْتُهم".[46]

وفي مرحلة ثالثة مثل بأبيات شعرية هي على الترتيب لـ:

- امرئ القيس، قوله:

وليل كموج البحرِ أرْخَى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطّـــى بجَـــوْزِهِ وأردف إعجازًا وناءَ بكلكل

- حسان بن ثابت، قوله:

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عنوانُ السجود به يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبيحًا وقرآنا

- جميل العذري، قوله:

أكلّـمَـا بـانَ حـيٌّ لا تُلَائِمهـــم ولا يبالون أن يشْتَاق مَنْ فَجَعُـوا

علقتني بهوى منهم، فقد جَعَلَتْ من الفراق حَصَاةُ القلب تنصدع

- أبي نواس، قوله:

بصَحْنِ خد لم يغض ماؤه ولم تَخضهُ أعين النّـــاس

وقال أيضا:

فإذا بدا اقتادَتْ محاسنُه قَسْرًا إليه أَعِنَّةَ الحـــدق

أبي الطيب المتنبي، قوله:

ضممتَ جناحيهم على القلب ضمة تموت الخَوَافِي تحتها والقَـــوَادم

وقال أيضا:

صدمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أنت غُرَّته وسمهريته في وجهه شَمَـــــمُ

- السري الموصلي، قوله:

يشق جيوب الورد في شَجَراته نسيمٌ متى ينظر إلى الماء يبرد

وفي باب (التجنيس) مثل ببيت للصَّلَتَان العبدي يرثي فيه المغيرة بن المهلّب يقول فيه:

فانْعَ المُغِيرَةَ لِلْمُغِيرَةِ إذْ بَدَتّ شَعْـــوَاء مشعلة كَنَبْحِ النَّابِحِ[47]

ثمّ آيتين من كتاب الله عزّ وجلّ﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ** ﴾[النحل :44] وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ انْصَرَفُوا صَـرَفَ اللهُ قُلُوبَهُـــمْ** ﴾ [التوبة: 127]. وفي مرحلة ثالثة مثّل بحديث نبوي شريفن جاء فيه: « **سُليم سالمها الله، وغَفَار غَفَرَالله لها، وعُصَية عَصَتِ الله ورسوله** ».[48]

ثم عاد مرة أخرى لاستخدام الشاهد الشعري؛ فأدرج أبياتًا لكل من: سيبويه وثعلب وأبو عمرو بن العلاء والأودي وأبو نواس وابن الرومي على الترتيب.

خاتمة:

على الرغم مما قيل في كتاب(العمدة) واتّهام صاحبه -ابن رشيق- من طرف بعض النقاد بالنقل الحرفي والجمع ، وكأن ملكة الابتكار والإبداع عند هذا الرجل تكاد تنعدم في هذا الكتاب، وهناك من يقول بعدم وضوح المنهج الذي استند إليه ابن رشيق في مؤلّفِه، وذوبان شخصيته في شخصيات الآخرين ممن سبقه من أعلام هذا العلم من البلاغيين والنقاد؛ أي: أنّه لا يملك شخصية مميّزة، وغيرها من التهم التي كِيلت للرجل من المتأخرين من المشرقيين خاصة وكأن العلوم حكرا على المشرقي دون المغربي. ولكن هذا لا يعني أن كل المشرقيين من الدارسين والباحثين في هذا الفن كانت لهم نفس الرؤية؛ بل هناك من المنصفين منهم الذين كانت لهم آراء مختلفة في (العمدة) وفي صاحبه، نحو: شوقي ضيف، وحنفي شرف وغيرهم ممكن كانت نظرتهم للكتاب، وللطريقة التي أُلِّف بها، ولمحتوياته مغايرة لِمَا سبق. فكتاب (العمدة) يُعدّ موسوعة حقيقية جمعت المأثور من كلام العرب، وما نُقل من آراء العلماء من أعلام البلاغة والنقد الأدبي؛ هذه الآراء التي تتميز بالدقة . فهو الثروة التي لا غنى عنها للباحثين والدارسين، وهو الموسوعة في الشعر ونقده، وفي البلاغة وألوانه، وهو المعين الذي لا ينضب للأدباء والبلاغيين والنقاد. ويكفيه فخرا أنْ فضّل ابن خلدون كتابه على سائر الكتب السابقة له واللاحقة، فقال في (مقدمته، ص611):« وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها - صناعة الشعر – ولم يكتب فيها أحد من قبله ولا بعده مثله »

الهوامش:

[1] - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون،ط1، بيروت: 2007، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر،ص611.

[2]- بن الذيب عيسى وآخرون، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، ص98- ينظر: عاشور شرفي الكتاب الجزائريون، قاموس بيوغرافي، ص19.

[3]- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص270- يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ص16- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ص150.

[4]- محمد بن رمضان شاوش والغولي بن حمدان، إرشادات الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1 ص71 - مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة والنقد بين التاريخ والفن ، الإسكندرية: 1975، ص39- رابح خدوسي موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، الجزائر: دار الحضارة، ص13- ابن رشيق، العمدة، ج2، ص275.

[5]- الفيروزآبادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، ص58.

[6]- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص270.

[7]- ع/ عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص270.

[8]- ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص151.

[9]- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص270.

[10]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص186.

[11]- المرجع نفسه، ص186.

[12]- كامل محمد محمد عويصة، ابن رشيق القيرواني الشاعر البليغ، ص114.

[13]- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ص271.

[14]- يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ص28.

[15]- المرجع نفسه، ص29.

[16]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط12، القاهرة:2003، ص152.

[17]- ينظر: كامل محمد محمد عويصة، ابن رشيق القيرواني الشاعر البليغ، ص44.

[18]- ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص150- بن الذئب عيسى وآخرون، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر في العصر الوسيط، ص98 - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص270 – ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص297.

[19]- ينظر: رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ص13.

[20]- ينظر: عاشور شرفي، الكتاب الجزائريون قاموس بيبلوغرافي، ص 19 ـ ياقوت الحموي معجم الأدباء، ج8 ص10 - السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص504.

[21]- القفطي، أنباء الرواة، ج1، ص298.

[22] - ابن رشيق، العمدة، ص16

[23] - ابن رشيق، العمدة، ص16

[24] - المرجع نفسه،ج1، ص237.

[25]- ابن رشيق، العمدة، ص16.

[26] - ابن رشيق، العمدة، ص210.

[27] - المرجع نفسه، ص69.

[28]- ينظر: هيفاء عثمان ندا(المقاييس البلاغية عن ابن الرشيق في كتابه العمدة)
uqu-ed4.sd/ page/a5/147382 ،2014/04/10

[29] - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص16.

[30] - المرجع نفسه، ج1، ص220.

[31] ـ المرجع نفسه، ص220-221.

[32] - ابن رشيق، العمدة،ج2، ص27.

[33]- ابن رشيق، العمدة،ج2، ص28.

[34]- ابن رشيق، العمدة، ج1، ص210.

[35] - المرجع نفسه، ج1، ص207.

[36]- المرجع نفسه، ج1، ص15.

[37]- المرجع نفسه، ج2، ص09.

[38]- المرجع نفسه، ج1، ص 10.

[39] - ينظر المرجع نفسه.

[40] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص 7.

[41]- المرجع نفسه، ج2، ص 7.

[42]- المرجع نفسه، ج1، ص 226.

[43]- المرجع نفسه، ص 226.

[44]- المرجع نفسه، ج1، ص 228 – محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، ط4، الجزائر:1990، دار البعث، ص 70.

[45] - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص 228.

[46]- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص228.

[47]- ابن رشيق، العمدة، ج1، ص265.

[48]- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص 265.